

رابين، باراك... أما الثيران من أمثال شارون (جنرال بلطجي) ،
والبغال من أمثال ناتانياهو (وهو ليس عسكرياً كما نعرف) فإنهم
يظنون أن الفتونة والمهيسة تغنى عن أعمال الحكمة والفكر ، إنهم
لغروهم وحمقتهم كما كان الحال عند فتوات مصر - يظنون
أنهم وحدهم في هذا العالم فتفوتهم حقائقه .

كان اغتيال رابين في إسرائيل هو نظير اغتيال السادات في
مصر، وكان في كلتا الحالتين عملاً فاشلاً ، لأن الفرد هالك على
أية حال، أما الأفكار فهي قادرة على البقاء في عقول الآخرين.

مستقبل القوات المسلحة :

تتميز الحقبة التي نعيشها الآن بما يبدو أنه تطور هائل في دور
القوات المسلحة أو فارق كبير بين دورها طوال ثلاثة أرباع القرن
العشرين، والرابع الأخير من هذا القرن أو ربما نقول "ذلك القرن"،
باعتبار أنه قد انقضى .

شهدنا - أو شهد العجائز منا، مثلى أنا وأبناء جيلي - حربين
عظيمتين في القرن العشرين. كانت الأولى صراعاً بين أباطرة
أوربا، يأتي من أطماعهم في بقية أنحاء العالم، كانت أوربا قد
قطعت شوطاً في التقدم يجعلها لا ترى في آسيا وإفريقيا سوى
موارد مادية وبشرية يحق لها أن تستمد منها ما تشاء من أجل
إنتاجها ورفاهيتها ، ومن هنا جاءت حرب البوير مثلاً قبل ذلك، ثم
وصل الصراع على هذه الغنيمة الكبرى إلى أقصاه في الحرب
العالمية الأولى. ويرى الكثيرون أن الحرب الثانية لم تكن سوى
نتيجة للأولى ولما أدت إليه من إذلال لواحدة من أعظم وأقوى
الأمم في العالم وهي ألمانيا ، التي أصر شعبها على الانتقام . إن
كان هذا صحيحاً فدرجة أو أخرى، لأنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن
ألمانيا كانت قد تحولت من نظام إمبراطوري - بعد سقوط

الإمبراطور غليوم بعد الحرب وبسببها . كما سقط قيصر روسيا
ولنفس الأسباب - إلى نظام فاشي كانت بذوره قد أُنبتت نظاماً
مماثلاً في إيطاليا وإسبانيا ، بل إن إسبانيا كانت قد دارت فيها
الحرب بين هذه الفلسفات الجديدة في الحياة والحكم -
الديموقراطية والشيوعية والفاشية - وهذه الحرب كانت هي
"البروفة" للحرب العالمية الثانية وبقية القصة معروف . هذه
الحرب العالمية إذن لم تكن مجرد استمرار للصراع على الغنائم
وعلى القارات والشعوب المتاحة للاستعمار ، بل كانت أيضاً
صراعاً أو صداماً بين الأيديولوجيات والعقائد السياسية
الاجتماعية . الواقع أن ألمانيا كانت قد كفت عن التفكير في
استعمار بلدان إفريقيا ، بل إن الحرب العالمية الثانية كانت مسلماً
تاريخياً نحو إنهاء الاستعمار القديم وسقوط مؤسساته البريطانية
والفرنسية والهولندية والبلجيكية والبرتغالية والإسبانية كل هذا
أصبح "موضة قديمة" بفعل التطور المستمر في مفاهيم الحياة
وأساليبها : وبفعل ظهور أمريكا كقوة عظمى وسيادة عقليتها
"الأعمالية" أو "التجارية" أو "البيزنسية" ، كانت ما كان التعبير
المفضل لدى القارئ . صاحب هذا أيضاً تطور هائل في علوم
وتكنولوجيا الفضاء والمعلومات جعل الوجود العسكري أمراً لا
ضرورة له للسيطرة على دنيا المستعمرات أو على العالم الثالث أو
المتخلف أو "الآخذ في التطور" كما يسمونه هم ، بصرف النظر عن
مدى دقة هذا التعبير . كان الإنجليز ينشرون في أنحاء العالم
الملايين من أبنائهم على هيئة جيوش برية و أسطول يجوب أنحاء
العالم من أجل السيطرة عليه وعلى موارده ، لم تعد هناك ضرورة
لذلك ولم يعد هناك فائض بشري لدى الدول المسيطرة يمكنها من
ذلك ، كما أن فكرة "التدخل السريع" أصبحت منطقية جداً مع تطور
وسائل النقل الجوي - وربما الفضائي في المستقبل القريب -
والحالات واضحة وتمثلة أمامنا : العراق ويوغوسلافيا وتيمور .

كما أنه فى هذه الحالات الثلاث لم تكن القوى العسكرية هى جيوش دولة استعمارية أو أخرى بل قوات تتحالف تحت راية الأمم المتحدة وتعمل تحت غطاء قانونى - إلى جانب غطائها التكنولوجى يستمد من أحقية المنظمة الدولية ومن عضوية دول العالم كلها فيها، ومن لا يرغب فى هذه العضوية لن يكون هذا طريقة إلى الحرية وإلى النجاة من السيطرة العالمية - كما هو فى هذه الحالة الفريدة، سويسرا - بل إنه سيضعه فى موضع المجرم الذى يحق للرابطة أن تضبطه بدون حتى إذن من النيابة .

هناك إذن عاملان أساسيان فى تطور الجيوش من حيث دورها فى حياة الأمم . الأول تكنولوجى، ويأتى من حقيقة أنه لا أمل فى أن تفرد أية دولة بعمل عسكري، كما فى حالة العراق، أو حتى شبه عسكري، كما فى حالة يوغوسلافيا، وإلا فالتأديب بالخرزانة أو حتى الذبوت سيكون كفيلاً بإعادتها إلى الطاعة كالمراة الناشز، والذبوت ليس متاحاً لأحد سوى هذه القوة العالمية الهائلة التى تأتى من الولايات المتحدة الأمريكية ومعها الولايات المتحدة الأوربية (وقد كان تأديب يوغوسلافيا راجعاً إلى عوامل متعددة ، ولكن على رأسها أنها عقبة فى سبيل هذا الاتحاد الجديد الذى أصبح محتوماً بعد دمار الفاشية والشيوعية واستحالة عودة ألمانيا وروسيا إلى الحياة بدون معاونة أمريكا)، أما العامل الثانى فى تطور دور القوات المسلحة فهو هذا نفسه، النظام العالمى الجديد الذى يجعلها لا تستطيع أن تعمل إلا تحت هذه المظلة، مظلة الناتو أو ما قد يحل محله فى المستقبل . والنظام الغربى الحديث - الذى هو توليفة من الديمقراطية التعددية والرأسمالية الخاضعة لضوابط قوانين العمل وغيرها من التشريعات التى تعمل على تهذيبها وحماية الناس من طغيانها - هذا النظام يتضمن أيضاً خضوع القوات المسلحة لقيادة مدنية هى سلطة الدولة، أما القيادة العسكرية التى تشارك فى رسم سياسة الدولة أو ممارسة الحكم فهو أمر

بغض عند العقلية الغربية الجديدة لأنه ينتمي للفاشية الأولى (استعير التعبير من الكتاب الكريم ، الجاهلية الأولى)، حتى ولو كان هذا طبقاً لدستور ينص على دور للجيش في إدارة الحكم، كما في تركيا ، وهو واحد من الأسباب الكثيرة التي تجعل الأوربيين لا يرون تلك الدولة جديرة بعضوية الاتحاد الأوربي، مهما اشتركت في مناورات مع إسرائيل ! والواقع أنني لست أرى كيف سيتم قبولها فيه . ولكن القوات المسلحة التركية تظل واحدة من أذرع حلف شمال الأطلسي وواحداً من الأمثلة التي توضح ما نتحدث فيه الآن ، فتركيا ليست حرة في استخدام جيشها في أية أهداف تريدها تلك الدولة – كملاحقة الأكراد في شمال العراق أو تهديد سوريا بالحشود على حدودها – لا تستطيع ذلك إلا بالتنسيق مع قيادة "النظام العالمي" كما يسمى، سواء كان ذلك خافياً أو معلناً. وعندما يتوسط رئيس مصر – مشكوراً طبعاً – لنزع فتيل الأزمة بين تركيا وسوريا وينجح في ذلك ، فإن هذا لا يعني أن النظام العالمي متمثلاً في الاتحادين الأمريكي والأوربي كان سيقف موقف المتفرج لو أن تركيا هاجمت سوريا ، وهي لم تكن ستجرؤ على ذلك بدون ضوء أخضر" .

قبل أن ننتهي من هذه النقطة علينا أن نذكر دور مصر في الحملة التأديبية ضد العراق ، أو في حرب تحرير الكويت كما تسمى. هذا الدور، ومن قبله حرب أكتوبر ١٩٧٣، والتي حظيت فيها مصر بتقدير النظام العالمي الذي كان يوشك على الظهور، برغم الإسراع إلى نجدة إسرائيل لأنه ليس مسموحاً على الإطلاق بإلحاق الضرر بها كمجتمع وكدولة، هذان الحدتان يمثلان تطوراً هائلاً في العسكرية المصرية وبداية جديدة لقواتها المسلحة تتفق مع عضوية مصر في المؤسسة العالمية ونهاية لدورها كدولة ناشز أو مارقة Pariah state كما تسمى ، وهو الدور المؤسف الذي لعبته في الماضي القريب ودفعت له ثمناً باهظاً من كيائها

وتاريخها وحضارتها وقيمتها وكرامتها . وهكذا فإن العسكرية المصرية تتخذ طريقها نحو بناء جيش متطور وعلى درجة عالية من الكفاءة ، فقط هذه الكفاءة يستمد هذا الجيش ، كما فى كل جيوش الدول المنتمىة للنظام الجديد — من عضويته فى هذا النظام . وهو — بكل تأكيد — الطريق الوحيد نحو هذه الغاية .

إلا أننى — كمجرد مواطن — أتمنى أن تتبنى قواتنا المسلحة فى المستقبل على الاحتياجات الفعلية للدولة المصرية والشعب المصرى ، بعبارة أخرى على قضية الإنسان المصرى — أنا لا أرى أن قضيتى أو قضية المرأطن فى بلدى هى إنشاء جيش مهمته حماية مكاسب الشعب ، فهذه الحماية هى مهمة القانون وهى المهمة التى من أجلها تقوم السلطة وإلا فلا داعى لها ولا حاجة بالشعب إلى احتمال تكلفتها . هذا إن وجدت هذه المصائب، أقصد المكاسب . كما أن هذا المواطن ليست مهمته محاربة الاستعمار لمجرد أن زعيماً أفاقاً أو آخر يريد أن يخدمه بهذا الشعار، قضيتنا هى أن نحصل على الحد الأدنى من الاحتياجات الأساسية للإنسان فى هذا العصر قبل أن نفكر فى الصراع مع كل كيان آخر، لأن هذا الصراع فى مصلحة دكتاتور جاهل أو آخر... إن هزيمة ١٩٦٧ لم تكن حتى هزيمة ، إنها ناشئة عن عدم إدراك كل من القيادة السياسية والقيادة العسكرية لماهى القوات المسلحة ولا لرسالتها ، وهم على كل حال خريجو جيش ما قبل ١٩٥٢ الذى وصفوه هم بأنه جيش المحمل ، أما جيشهم هم فإن انعدام ثقافتهم وتهافتهم على الغنيمىة يحول دون إدراكهم للمهمة الحقيقية للقائد العسكرى ولمكوناته الشخصية والمهنية ، القائد الذى يضطلع بمهمة مثل كمشيش لا يصلح لأن يحارب إلا فى جبهة مثل هذه ، كل ما سمعناه عن وحشية النازى مثلاً كان يرتكب بواسطة الجستابو، وليس الجنرال العسكرى الذى يعد نفسه أنموذجاً للفروسية والشهامة والثقافة الرفيعة . وكان الإعدام عقوبة الجندى

الألماني إذا اعتدى على امرأة في المناطق المحتلة ، وكان الجنرالات يحتقرون الجستابو ويترفعون عن مخالطتهم .
سوف تظل حرب أكتوبر درساً عظيماً لأبنائنا ولقاداتنا في مستقبل هذه الأمة، وسيكون قادتها هم المثل العليا لأجيالهم المقبلة.
يجدر بنا هنا أن نضيف أن الجيوش لا تخوض الحرب، المجتمع بأسره هو الذي يحارب، والجيوش هو الأداة التي يستخدمها في ذلك، من حق القائد العسكري أن يشغل بالسياسة، ولكن اشتغاله بها وتحت يده قوات الميس الأخضر وفصائل البلطجية الرسميين، هذا لا يعد سياسة والجيوش الذي يسمح به ليس جيشاً .

الحرب الحديثة

أنا لن أمل من تكرار بث هذه الرسالة إليك لعلك تستطيع أن تفهمها ، أنت ستخرج من كوسوفو ، وأهلها سيعودون إلى بيوتهم .
توني بلير ، رئيس وزراء بريطانيا

فى حديث مذاع، مخاطباً ميلوسوفيتش، الذى اعتمد على صعوبة الغزو البرى لكوسوفو لطبيعة أرضها، مما دفع الحلفاء إلى تدمير مرافق صربيا.

هناك نوعان من الحرب : الحرب النظامية، وفى هذه نجد القوى المتصارعة تستخدم الأسلحة الحديثة التى هى متاحة لها، وقد جاء القرن العشرون بالطائرات ثم بالصواريخ، وأثناء ماسمى بالحرب الباردة كان الاتحاد السوفيتى والدول المناصرة له تضع صواريخها على منصات الإطلاق، محملة بالرءوس النووية، وعلى الجانب الآخر أوروبا الغربية، ثم من وراء المحيط، الولايات المتحدة تفعل نفس الشيء . لم يحدث "تسخين" للحرب الباردة لحسن حظ البشرية، وشاهدت جون كيندى فى مطلع الستينيات يلقى خطاباً يقال أنه كان واحداً من أسباب اغتياله، يقول حرفياً "إن تبادلًا للقدائف النووية، يستمر أقل من أربعين دقيقة، سيكون كافياً لإبادة أربعين مليوناً من كل جانب"، بمعنى أنه يجب البدء فى محادثات نزع السلاح النووى، وفعلًا كان قد بدأ محادثاته بهذا الخصوص مع نيكيتا خروشوف بمشاركة هارولد ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا . التكنولوجيا جعلت الاحتلال بالجيش إجراء من

النوع "البلدى" - لم يعد له لزوم. ولذلك فإن الولايات المتحدة كانت - وما تزال - مستعدة لتلقى ضربة نووية مع وجود حكومتها وكل أجهزتها في مخابئ تحت الأرض تمكنها من البقاء، ويرجع هذا لأيام أيزنهاوز. وقد حدث في أوائل هذا القرن الجديد، بالتحديد سنة ٢٠٠١، أن أدلى الرئيس اليمنى على عبدالله صالح بتصريح قال فيه: "اعطوني حدوداً مشتركة مع إسرائيل وأنا أريكم ما سأفعل" - كان واضحاً من هذا التصريح أنه يتحدث عن فنون القتال السابقة للقرن العشرين متجاهلاً القوة الجوية والصاروخية البعيدة المدى، وأنه أيضاً يريد التعريض بالدول التي لها حدود مشتركة مع إسرائيل، وفي حالة الأردن تصل إلى خمسمائة كيلو متر، ولكنه بالطبع كان يقصد مصر كالمعتاد، وهي أيضاً حدود طويلة تمتد من رفح إلى طابا. وقد رد عليه الرئيس مبارك - أطال الله عمره، قائلاً "تعال يا خويا ورينا شطارتك"، سكت الرئيس اليمنى وعلقت الصحافة المصرية بقولها إن الرئيس المصرى كان فقط يداعب "شقيقه" (تعبير عجيب درج عليه الإعلام العربى).

النوع الثانى من الحرب هو ما سمي قديماً باسم "حرب العصابات" - وهو تعبير يفنقر إلى الدقة. فى هذا النوع يتعرض الجيش النظامى للهجمات من جانب جماعات صغيرة - بل وأحياناً فرد واحد، من نوع رامبو الذى شن حرب عصابات ضد حكومته فى عقر دارها بعد أن اكتسب مهارات قتالية أسطورية فى حرب فيتنام، ومن الأمثلة الرائعة أيضاً الهجمات الانتحارية التى يشنها الشباب الفلسطينى فى نطاق الانتفاضة، وإن كنت - على المستوى الاستراتيجى - أشعر بالأسى لهؤلاء الشباب وهم يدفعون حياتهم ثمناً لأخطاء قادة وزعماء لا يستحقون هذه التضحية، ولا أظن أن أرواحهم تعنى عند هؤلاء شيئاً يختلف عن "عدة الشغل"، ومنها خيال المائة الذى يقف وراء واحد من اثنين يتسابهان فى

أمور كثيرة، أثناء رئاسة كل منهما لمجلس وزراء من مليون عضو، وأيضاً في الرقم ١٧ الذي لا بد له مغزى يغيب عن فطنتنا، أحدهما جعله رقم محافظة الكويت، والثاني رقم القوة التي تتولى حراسته شخصياً! .. من ماذا؟ الجيش القوي إذن قد يجد نفسه في مأزق مما يفعله المقاتلون الذين يتبعون طريقة "أضرب وأجرى" - أو، أضرب وأموت .

وقد ذاق الألمان الأمرين على أيدي هؤلاء أثناء احتلالهم يوغوسلافيا، بجيش جرار على مستوى من الكفاءة شاهدناه وعرفناه. وكذلك الأمريكان في فيتنام ثم الإسرائيليون في جنوب لبنان. في جميع هذه الحالات كانت الأرض تصلح لهذا النوع من القتال، الأفراد متفرقون في مناطق جبلية أو أحراش كثة وكثيفة، ماذا يفعل الجيش النظامي بقنابله ولو كانت نووية؟ لا بد أن ينزل قوات لمقاتلتهم وهذه ستكون معركة غير متكافئة، وحتى بعد مجئ الطائرات المروحية، في استطاعتهم اصطيادها من مخابنهم التي يصعب تحديد مواقعها .

الحل الوحيد أمام الجيش النظامي هو أن يرغم حكومة البلد التي يحتلها على أن تتعقبهم أو تقضى عليهم أو تسكتهم بأى وسيلة، وإلا فإن هذه الحكومة سوف تجد نفسها في موقف لا تحسد عليه. وقد استخدم الأمريكان قوتهم في فيتنام شمالها وجنوبها، ولكنهم وجدوا عقبتين كبيرتين ، أولاهما أن العالم يستكر ما يفعلونه وهم يتخذون وضع القيادة العالمية التي تعمل من أجل خير البشرية (أقول تتخذ هذا الوضع ، ولا أقول أنهم كذلك حتى ولو كانوا كذلك ، ومع اعتقادي بأنهم من بين القوى المهيمنة أفضل ما رآه تاريخ البشرية حتى الآن ، وسنأتى لذلك، فقط أرجو من القارئ شيئاً من طول البال و "ضبط النفس") أما العقبة الثانية فهي موقف الشعب الأمريكي نفسه متمثلاً في الصحافة و "الميديا" وجماعات الضغط وآباء الجنود الذين يموتون في الحرب . "ما

الذى نحن بسبيله هناك؟" ، هكذا تتساعل المعارضة ، كانت مظاهرات الطلبة تسير فى الشوارع وقد رفعت لافتات موجهة إلى الرئيس جونسون (الذى وصفه السادات بحق عندما قال وهو ذاهب للاجتماع بالرئيس جيرالد فورد : "فورد ليس راعى بقر مثل جونسون") - كانت هذه اللافتات تقول فى عبارتين منسجمتين بقافية بديعة فى الإنجليزية، تضيع عند الترجمة طبعاً ، صباح الخير يا ل.ب.ج، ترى كم شاباً قتلتهم اليوم ؟

كان هذا هو الطريق إلى الانسحاب من فيتنام بجهود من الرئيس نيكسون ووزير خارجيته كيسنجر . نفس الشيء تماماً فى لبنان، مضت فصائل حزب الله تنزل الخسائر البشرية بالجيش الإسرائيلى الذى لم تكن أمامه العقبة الأولى التى واجهها الأمريكان فى فيتنام ، ولكن الثانية تتمثل تماماً فى إسرائيل وفى كل بلد يستطيع الناس فيه أن يعترضوا على تصرفات الدولة دون أن تتعرض بناتهم للاغتصاب فى السجن الحربى الذى يديره سفراء المستقبل . ولأنه ليس لديهم العقبة الأولى فإنهم أعلنوا أنهم سيقومون بتدمير البنية التحتية فى لبنان لإرغام حكومتها على إسكات حزب الله ، كان هذا أثناء حكومة إيهود باراك، وفعلاً بدأوا يدمرون محطات الكهرباء مما أدى إلى إظلام أحياء بأكملها فى بيروت، ولو استمروا فى هذا لتحولت لبنان إلى بلدة فى العصر الحجري، ثم فجأة ، توقف القصف الجوى وأعلنت إسرائيل أنها ستسحب مما سبق أن أسمته "الحزام الأمنى" فى جنوب لبنان، وأن هذا الانسحاب "من جانب واحد" لماذا ؟ لماذا سكتوا وانسحبوا ؟

لم يقل لنا أحد شيئاً عن هذا. هناك احتمالان لا ثالث لهما، إما أن ضمائرهم بدأت تعذبهم ، وهذا مستبعد تماماً.

وإما أن السفير الأمريكى طلب مقابلة باراك وقال له أن عنده رسالة من حكومته مفادها أن "حكومتى تريد أن توضح أنها تتحمل الكثير من أموال دافعى الضرائب الأمريكيين لكى تبنى مرافق

لدول العالم الثالث، وهي ترى أن تدمير هذه المرافق معناه إضاعة ثمار هذه التضحيات " هنا وجد باراك أنه لن يستطيع أن يقنع الناخب الإسرائيلي بأن يتحمل خسارة أبنائه في معارك المقاومة اللبنانية .

للقارئ أن يفضل أياً من هذين الافتراضين، كلاهما أمر من الآخر، أليس كذلك ؟

أمريكا وإسرائيل :

نحن لا نقول بأن أمريكا تضغط الزر فينصاع الإسرائيليون . فقط لم نكن نحلم ونحن نراهم ينسحبون من سيناء وغزة سنة ١٩٥٦، ثم يقتلون مستعمرة ياميت وغيرها من سيناء سنة ١٩٨١ بعد أن سكنوها وبنوا حياتهم فيها ثماني سنوات، ثم مسحوها من على الأرض . وقد حاول المستوطنون أن يقاوموا جهود الإجلاء ، فحكومتهم هي التي جاءت بهم وشجعتهم على الإقامة وجعلتهم يشتغلون بمهين مستمدة من البيئة المحيطة، كالصيد والسياحة والتعدين، وطبعاً نزع ثروات المنطقة من معادن وبتترول وفاكهة .. إلخ . (حرب استنزاف حقيقية هذه !) أخرجوهم بالقوة ، ورأيت لهم صورا وبعضهم مكبل بالسلاسل بل وداخل أقفاص من الحديد . يقول أنصار المقاطعة الأبدية أن اليهود يسعون إلى تحقيق أحلام التوراة في وطن إسرائيلي يمتد "من نهر مصر .. إلى النهر العظيم، نهر الفرات" - لقد احتلوا أراضي مصرية سنة ١٩٤٩ وجلوا عنها نتيجة لمحاادثات رودس التي أدت إلى الهدنة التي امتدت إلى أن احتلوا سيناء سنة ١٩٥٦ - حرب السويس - كما نعرف، وانسحبوا منها ، ثم احتلوا سيناء كلها سنة ١٩٦٧ وكنت تراهم من أي موقع في الضفة الغربية، وبقوا فيها لغاية قيام حرب ١٩٧٣، حيث قامت قواتنا بعملية بهرت أنظار العالم، وذاقوا فيها

مرارة الاستسلام لقواتنا من مواقع فى القنطرة والشط ، فى الشط ، بالذات جرت مراسم الاستسلام ورفع العلم المصرى بعد إنزال علم إسرائيل ، وظهر فى البيان العسكرى أننا كنا نستطيع إبادةهم ولكننا فضلنا السلوك الحضارى .

بدأ الجسر الجوى بعد ذلك ، وكانت الأعمار الصناعية قد بدأت تلعب دورها الهائل فى التصوير والتقاط المعلومات — وهو التطور الذى يحقق نوعاً من السيادة المعلوماتية للقوى العظمى لم يسبق له مثيل ، ولا شك أن الإسرائيليين تلقوا من حلفائهم ما مكنتهم من التسلل الذى أطلق عليه اسم "الثغرة" — طبيعى جداً هذا ، فقد كان الأمريكان يريدون أن يقتلعوا النفوذ السوفيتى من المنطقة وخصوصاً مصر ، حيث يصل إلى أقصاه ، وعبروا بكل وضوح وصراحة عن رغبتهم هذه ، ولكنهم — طبعاً — لن يسمحوا بأن تصل هزيمة إسرائيل إلى أبعد مما هو ضرورى لكبح المغرورين والمتشددين من قادتها .

وهذا هو ما جعل الرئيس السادات فى واحدة من خطبه التالية لتلك الأحداث ، يقول "أنا مش حاحارب أمريكا" — وهذا أيضاً ما جعله — بحكمة يحمد عليها ، ويذم طبعاً من "إياهم" — يبيث رسالته فى أول الحرب ليقول للعالم أنه يريد أن يسترد أرض مصر المحتلة ، لا أكثر . وقد فعل ، قام فعلاً باستردادها وإزالة كل ما عليها من مستوطنات . حقاً ، يالها من خيانة .. عقاب الحبايب . من حسن حظ الفلسطينيين أنهم لن يتعرضوا لخيانة كهذه . لو أن اليهود يحلمون بوطن يمتد إلى ضفاف النيل ، ولو أنهم يفعلون ما يريدونه ، فلماذا انسحبوا بعد أن احتلوا الضفة الغربية لقناة السويس ، بل وقاموا بإزالة جميع حقول الأتغام التى زرعوها فى عملية الثغرة ، وهو بند فى الاتفاقية أصر عليه الخائن ، حقاً ، إلى أى حد فقدنا الرشد وأصبحنا لا نعرف الليل من النهار .

هل لابد لدولة مثلنا من جيش حديث تستطيع به أن تفرض

إرادتها بالقوة ؟

وهل هذا ممكن ؟ وهل هذه هي قضية الإنسان المصري ؟

هل هذا حاصل في أي دولة أخرى من دول العالم الثالث ؟

خذ تركيا مثلاً. كانت عصابة من العسكر تحكم اليونان،
وكالمعتاد في حالات الحكم العسكري، لابد من دخول الحرب ثم
تلقى الهزيمة فيها. كانت مغامرة يوانيدس وبابا دوبولوس هي
قبرص، ما أن شرعوا في ذلك وأسقطوا الأسقف مكاربيوس حتى
تدخلت تركيا بقواتها وفرضت الواقع الذي ما زال يسود حتى
الآن، أكثر من ربع قرن. تظاهرت أمريكا بأنها تعترض على
استخدام أسلحة حلف الأطلنطي في مسألة "شخصية"، وأعلنت
فرض الحظر على تركيا، ولكن من الواضح أن تركيا تلقت
الضوء الأخضر منها لأن أمريكا لا تهوى الأنظمة العسكرية أو لم
تعد تهواها بعد أن ثبت لها فشل هذا الأسلوب الأحمق. طبعاً
سقطت العصابة في الحال، تماماً كما حدث في حالة جزر
فوكلاندا، الجنرال جالتيري هو أيضاً "اختشى" بعد النكسة، لكن
اللى اختشوا ماتوا .

توجد في جميع بلدان البلقان أقليات تركية تعاني الاضطهاد ،
في بلغاريا يرغمونهم على تغيير أسمائهم ونسيان لغتهم ، لا
تستطيع تركيا أن تقدم على شيء هنا، كما لم تستطع أن تتحرك
في موضوع البوسنة ثم في كوسوفا.

قد تكون هناك حالة نادرة في موضوع الهند . قامت حرب بين
الهند وباكستان في أواخر الستينيات وحطم كل منهما قدرة الآخر ،
ثم في مطلع السبعينيات شنت أنديرا هجومها على باكستان بعد أن
أدت سياستها البهيمية إلى مذابح واسعة النطاق ونزوح الملايين
إلى الأراضي الهندية . كسبت الهند تلك الحرب وانتشرت
باكستان إلى قسمين .

لكي تكون لدينا قوة حربية نستطيع أن نهزم بها إسرائيل لابد من :

(١) الارتفاع إلى مستواها كدولة في العالم الأول ، من حيث نوعية المعيشة والتعليم والصحة والرضا عن الحياة والاقتناع بضرورة القتال .

(٢) أوضاع عالمية تمكن من ذلك .

لا يبدو هذا محتملاً . كما أنني لا أراه ضرورياً ، وأظن أن التعايش مع الأوضاع العالمية ومع الهيمنة الدولية.. ليس ممكناً فحسب ، بل هو ضروري . مشكلة الشعب الفلسطيني مؤلمة طبعاً ، إلا أنني لست أجد في ذاكرتي ولا في المراجع التاريخية، أن هذا الشعب تلقى من جانبنا ولا من جانب غيرنا شيئاً سوى مضاعفة آلامه . وعندما نسعى إلى الخير نصيح خونة .

وإذا كان لى أن أبدى رأياً ، مجرد هذا ، فإننى أرى أن وجود الرئيس السابق كلينتون - "قايم نايم" فى شرم الشيخ ومعه باراك الذى رهن مستقبله ومستقبل المعتدلين كلهم على تلك المحاولة الأخيرة ، كان فرصة لا يجوز أبداً أن ينطبق عليها ما قرأته مرة فى مجلة عالمية تصف العرب بأنهم "لا يضيعون فرصة لإضاعة فرصة" . كان واضحاً أن هذا سيعطى الحق لشارون أن يقول : انظروا ، لا فائدة منهم ، ينهزمون ويريدون كل شىء . أنتم تضيعون وقتكم وطاقتكم فى محاولة التفاهم معهم !" لعنة الله عليه!

الآثار النفسانية لعصر عبد الناصر :

الأصل فى السلطة الحكومية أنها تقوم من أجل النظام العام . نحن البشر نتميز عن جميع الكائنات الأخرى بأن دوافعنا النفسانية متعددة، لدينا غريزة، تماماً مثل القرود، ولكن لدينا أيضاً العقل الذى نفكر به، والذى نخترن فيه ثمار المعرفة والتجارب، وعن هذا الطريق نتطور ويتغير أسلوب حياتنا كل يوم، ولدينا أيضاً العاطفة، نحن نحس بعواطف طويلة المدى: الحب، الغيرة، والخوف - ضع الغريزة مع العقل مع العاطفة تجد مثلث القوى

الذى يحكم تصرفات البشر سواء كانوا أفراداً أو جماعات. الإنسان بدوافعه هذه قادر على درجات عالية جداً وسامية جداً من العمل السوى - وأيضاً على أن ينحط إلى مستويات مخيفة من الأذى والعدوان، خصوصاً عندما يجوع وتطغى غريزته على عقله وعاطفته - لما كان الإنسان كذلك فإنه لا يستطيع أن يعيش حياة تلقائية كبقية المخلوقات، لا بد من نظام يحكم الجماعات، الإنسان الوحيد الذى كان حراً تماماً هو طرزان. مع تقدم المعرفة تتطور نظم الإدارة هذه ومعها القانون الذى يحمى الناس من بعضهم البعض، من هنا جاءت السلطة والحكومة، ومعها الشرطة أو "العسس"، ثم الجهاز القضائى والجهاز التشريعى. فى المجتمع الحديث، لا بد من فصل هذه السلطات، لا بد ألا تكون الشرطة هى الخصم والحكم، وهناك قيوداً لأسلوبها وتعاملاتها، ويؤخذ المذنب، لا إلى غرفة العرش ومسرور السيف، كما كان الوضع أيام أبى جعفر المنصور وأمثاله، وأيضاً أيام غرفة الإعدام على ساحل جزيرة فى نيل القاهرة. بل إلى محكمة فيها ممثلون للاتهام والدفاع وهكذا.

السلطات فى المجتمع الحديث إذن - عندما لا تكون هناك "ثورة" - تلتقى منفصلة، وهذه طبعا فلسفات ترجع إلى عصر التنوير فى أوربا، القضاء مستقل وإلا فلن يكون قضاء، سيكون القاضى تابعاً لأمثال أبى جعفر المنصور (وكانت المحاكم العسكرية فى عصر النكسة تتعقد وتنتظر الدعاوى ثم: "ياللابقى نروح نجيب الأحكام")، ثم هناك سلطة أخرى مستقلة تصنع التشريعات، القوانين التى تنطبق على جميع الناس عندما لا يقرر محافظ القاهرة أن يعطيها إجازة. والسلطة التنفيذية عملها هو تطبيق هذا الكلام، وفى المجتمع الحديث أيضاً يوجد إعلام حر هو أيضاً، ومعروف أن صحيفة واشنطن بوست كانت هى التى فجرت فضيحة ووتر جيت وأثبتت للعالم أن الرأى العام يعلو فوق

السلطة، ومن هنا يأتي شعار الوفد القديم: "الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة" - حقاً، إن حرية الرأي العام والصحافة، تصلح مقياساً أوحده لرقى الأمم، وطبعاً، لا بد أن ينسجم هذا مع ذلك، كلاهما : الرقى والحرية، ضرورى لوجود الآخر .

نحن لسنا إذن فى حاجة إلى الحكومة لكى تدير عمر أفندى. ولا لكى تقوم بأعمال المقاولات وصناعة الملابس الداخلية والخارجية. وبيع السمك والطعمية . امتلاك الدولة لهذه المؤسسات يودى إلى إلباسها طاقة الحكومة وإخضاعها إلى الروتين المألوف وإلى أنواع من الرقابة تشل حركتها تماماً وتصيب المديرين بالذعر وتمكن العاملين تحت إمرتهم من الغدر بهم عن طريق "الأجهزة" وغيرها، ثم - وهو الأدهى من كل هذا - عندما تصبح الحكومة هى المستوظف الوحيد ، صاحب العمل الوحيد ، فإنها تصبح بالتالى ملزمة بتشغيل الناس جميعاً، وقد رأينا مشكلة الخريجين تعالج - كما تعالج جميع المشاكل - بالعافية، بالقرارات، يودى هذا إلى تفاقم حجم العمالة وهبوط إنتاجية الفرد وانعدام الشعور بالمسؤولية ، نتيجة لهذا كله تتخفض الجودة ويتحتم أن تتعامل مؤسسات الإنتاج مع دول الكتلة الشرقية كما رأيناه يحدث، اتفاقيات تبادل تتوقف كلها على ظروف الدولة الكبرى، فهى تعطى ما تستغنى عنه وتأخذ ما يمكنها أخذه، وفى زيارة لى للاتحاد السوفيتى أثناء الستينيات لاحظت أن فاكهة الأناناس تنتشر فى كل مكان ، فوق مناضد المطاعم وفى واجهات الحوانيت (وهذه كانت لا تتجاوز عشرة فى كل موبكو)، وكان السماء تمطر الأناناس . الذى كان يحدث هو أن بلداً مثل أندونيسيا تريد أسلحة تقيم بها استعراضاً فى عيد قومى، وليس لديها سوى محصول أناناس، والروس يريدون أى شىء "يفرح العيال"، اقتصاد المقايضة هذا يأتى البائع والمشتري بما يتصادف وجوده لا بما هو فى حاجة إليه، وقد رأيت فى شركات القطاع العام عندنا

أطناناً هائلة من الرواكد، بل ومن معدات الإنتاج التى لا تدور ولا يشتغل عليها أحد، فقد جاءت مثل ثمار الأناناس ، والمديرون لا يستطيعون أن يقولوا أنهم ليسوا فى حاجة لشيء فى الوقت الحاضر، أو أنهم فى حاجة إلى خامات معينة قد لا تتوفر لدى الروس. الإنتاج أى كلام طبعاً لأن بعض مكوناته قد لا يتوفر والتوقف يودى إلى أن يتحول صاحب القرار إلى كبش فداء، كما حدث - على ما أذكر - لشركة الملح والصودا، جاء الرئيس فى عيد الخطب مرة وهاجم هذه الشركة لسبب غير معروف، صباح اليوم التالى انهالت الصحف - ومعها الشرطة العسكرية طبعاً - على رؤوسهم، ومرة أخرى، ولسبب لا أظن أحداً يعرفه، جاء بزكريا محبى الدين رئيساً للوزارة، لعله كان يريد تعذيب الوزراء؟ وفجأة وفى خطبة عصماء، قال إن الذى يلزمننا هو كفاءة الإدارة التى ظهرت فى قناة السويس، وكفاءة البناء التى ظهرت فى السد العالى، كان هذا هو الطريق إلى الإتيان بصدقى سليمان رئيساً للوزراء، وبمحمود يونس وزيراً للصناعة أول الأمر، ولكنه قال أن النقل والمواصلات تتاسبه أكثر لأن قناة السويس "كلها مواصلات". وكان وزير المواصلات مصطفى خليل، فوجد نفسه فجأة وزيراً للصناعة. الوزارات الموسيقية، وسرعان ما قامت حرب ١٩٦٧ دون أن يدري بها رئيس الوزراء . سمع بها فى الإذاعة.

إما التحول الإشتراكى قصة أكثر طرافة . كنت ذات يوم أستمع إلى الراديو - هذا قبل مجئ البثليفيزيون - وكان الرئيس يلقى واحدة من خطبه التى أصبحت كأنها - واستغفر الله - سوراً قرآنية . أخذ يتحدث فى أمور من هنا ومن هناك ، وفجأة قال "لازم نقيم مجتمع اشتراكى (ثم وقفة تاريخية) ديموقراطى (ووقفة أخرى) تعاونى" - وفى اليوم التالى فتحت الراديو فسمعت على ما أذكر عبد العزيز محمود ، يغنى أغنية هكذا : "اشتراكية

ديموقراطية تعاونية"، وللقارئ أن يزعم بهذه الكلمات الثلاث واحدة وراء الأخرى بهذا الترتيب فيجد نفسه يؤدي هذه الأغنية كما سمعتها أنا تماماً .

وكما هو معروف، كان المدير المختص بالأغاني الوطنية في الإذاعة يأتي بمؤلفي وملحنى الأغاني ويحبسهم في مكتبه أثناء خطاب الرئيس ويفهمهم أن لقمة عيالهم رهينة بإتمام الأغنية قبل طلوع النهار وإلا، ومن هنا جاءت "ولا يهملك يا ريس م الأمريكان يا ريس"، وكان هذا بعد خطبة "اشربوا م البحر" الشهيرة، والتي عاد ياسر عرفات وكررها أثناء المعارك التي يدفع بها بأطفال فلسطين ليواجهوا بالطوب دبابات إسرائيل ومصفحاتها .

الدارسون لعلوم الإدارة الحديثة يعرفون أن إدارة المرافق وغيرها من المنشآت العامة تختلف في كثير عن إدارة المؤسسات الاقتصادية والصناعية والمالية والتجارية، سنجد في هذه المؤسسات أن الهدف الأسمى هو تقديم المنتجات المادية والخدمية التي تحقق مكانة مرموقة في السوق، وحصصة سوقية يعتد بها وتمكن من البقاء، أما في القطاع العام، وهو في المجتمعات التي تسودها آليات السوق، "الرأسمالية" كما تسمى - يقتصر على المرافق العامة المملوكة للدولة، كالمطافئ وأجهزة الأمن والقوات المسلحة مثلاً - حيث الإدارة لديها ميزانية تنفقها. لسنا بالطبع نزعم بهذا أن الإدارة هنا أمر هين، فهو ليس كذلك على الإطلاق، هناك دائماً أهداف يلزم تحقيقها، وجميع مراحل التخطيط والتنظيم والقيادة موجودة وقائمة، ومعها جانب المعلومات، الذي نقوله هو أن مشكلات المنافسة والتسويق وتقلبات التكنولوجيا والعملة والتمويل .. إلخ، كل هذا لا يوجد ولا تقدر عليه الحكومة إطلاقاً، وعواقبه هي أن تفرق الشركات في مديونية البنوك، كما حصل في مصر. صحيح أن الرأسمالية لها رذائل شنيعة، وهي كامنة فيها ومن خصائصها الأساسية، ولكن الثمار التي تأتي بها

والناشئة عن كفاءة الإدارة "وعلميَّتها" ومشاركة العقول النابغة فيها، كل هذا أدى إلى تطور قوانين العمل بما يحقق خيراً كثيراً للقوة العاملة. المهم ليس هو الفوارق بين الطبقات، المهم هو المستوى الأدنى للأجور، وهذا في الدول الرأسمالية الناجحة — كما قيل مؤخراً — يفوق راتب رئيس الوزراء في غيرها من المجتمعات، هذا إذا كان رئيس الوزراء قانعاً براتبه وامتنازاته .

صحيح أن الرأسمالية كثيراً ما تشتري السلطة ، والسلطة كثيراً ما تعيثُ فساداً في الرأسمالية ، ولكن هذا شيء وإدماجهما معاً شيء آخر، تأمل ثلاثين عاماً من حكم ستالين للاتحاد السوفيتي، ومرجعك ليس دعاة الرأسمالية، بل خطاب خروشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ! السلطة هنا تؤتى الدكتاتور بما هو أوفر من مال قارون وأثمن من حجر الفيلسوف، أنه يمتلك الأرض وما عليها ومن عليها ، ويتحول إلى كائن رهيب فظيع ، وعندما يحدث هذا بالطريقة التي تجرى بها الأمور في العالم الثالث ، فهو ليس زعيماً له تاريخ في السياسة كصاحبنا هذا ، بل وله مؤلفات فيها وماض في الكفاح ، بل هو كائن غريزي، عنيف كالثور جاهل كالحمار قاس كالشيطان، ما أن يصل إلى السلطة بحدوث أو آخر حتى يتحول إلى وحش يفترس كل ما يصادفه ومن يصادفه .

لا أتصور أن مصر قد تكلفت في التطبيق الشمولي أقل من مجمل نتاجها القومي لما يزيد على خمس عشرة سنة . هذا بخلاف "السلب والنهب" كما يقول محمود أبو الفتوح : "بطل الهزائم وزعيم ثورة السلب والنهب" ، هكذا دأب على وصفه . ارجع إلى خطاب السادات بعد نجاحه في تصفية من أسموهم مراكز القوى ، وحديثه عن "الخزنة" في بيت الزعيم ، رئيس الدولة يخاطب الشعب في التليفزيون ، هذه ليست إشاعة سيئة النية ، إنها بيان رسمي من رئيس الدولة في إذاعة الدولة : "الخزنة لها مفتاحين ، واحد مع

سامى شرف والثانى مع الهانم فوق " ثم أضاف : "أهى الحكاية كده باحكيها لكم تفهموا منها اللي تفهموه" ، ما معنى هذا الكلام ؟ وما وقعه فى إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل ؟ وما وقعه فى نفوس الناس فى مصر ؟ ما وقعه فى نفس أمين مخزن أو صراف يحاكم ويدخل السجن لنقص فيما فى عهده من مال أو أصناف ؟ اشتراكية أرسين لوبين هذه ..

أضف إلى هذه الحروب . جوبلز عبد الناصر كتب يقول : "إن إيراد مصنع واحد من المصانع التى بنتها الثورة يكفى لتعويض تكاليف حرب اليمن" ، وكتب أيضاً يقول : "إننا لكوننا متخلفين ، لن نستطيع أن نتقدم تكنولوجيا وسبيلنا الوحيد هو تعويض هذا بأن نستقدم اجتماعياً" ، كان التقدم الاجتماعى وقتها معناه الشيوعية ، ترى هل شركة الحديد والصلب مثلاً حققت أرباحاً تصل إلى ثلاثين مليار دولار تقدر بها تكاليف حرب اليمن ، شاملة الطرق والمطارات التى أنشأناها هناك وكانت السفن تنقل الرمل والزلط إليها والطائرات تنقل الذهب (وسقطت واحدة منها بالقرب من مدينة أسوان) - ثم الأسلحة والمعدات والطائرات الأنتينوف التى تركناها كلها هناك ، أرباح هذا المصنع الخاسر من يومه ، غطت هذا كله ؟ أنه يخاطب من يرى فيهم عبداً عند السلطة التى هو عضو فيها .

أثناء ما يسمى بحرب الاستنزاف ، نزح سكان منطقة القناة إلى رأس البر والصالحية وغير ذلك ، وجرى "نقل هيئة قناة السويس إلى القاهرة" ، نعم . احتلت مقرأ فى مدينة نصر . هذا الشعب كله، الذى يفوق تعداد الأردن وفلسطين معاً، من العاملين فى هيئة القناة ، بمرتباتهم وامتيازاتهم، ومن جميع العاملين من مدرسين وموظفين من كل الأنواع، مضوا يتقاضون مرتباتهم دون أن يعملوا أى شىء ! ثمانية أعوام إلى أن قام الخائن بإعادة فتح القناة وتعميرها . ملايين تدفع كل يوم، والمطبعة طبعا شغالة . على

حساب من كل هذا ؟ على حساب كل المصريين ، ومازلنا حتى الآن ندفع ونسّظل ندفع ، وإلا فما الذى جعل راتب أى مصرى يعادل واحداً من ثلاثين من نظيره فى أى بلد آخر فى المنطقة ؟ والذى يحتج ، هاتوا أمه أو ابنته .

لست أدرى كيف تكون كل هذه الحروب قد كلفت شعب مصر أقل من مجمل إنتاجه خمس عشرة سنة أخرى . نعم ، عشنا ثلاثين سنة نعمل ، فلاحين وعمالاً "وفئات" ، نعمل وننتج دون أى مقابل، إلى أن هبط علينا الفقر بكلّكاه ، وسحقنا سحقاً . وهو طبعاً - الفقر - يخلق عالماً مستقلاً ، له نفسياته وأخلاقياته الخاصة .

إلا أن الفقر هدف فى ذاته . عندما وقع الانفصال سنة ١٩٦١ ، وقف الزعيم يعلن أن الذين دعّموا الانفصال بأموالهم هم المذنبون ، ولذلك : "أنا مش حاخلى حد يبقى معاه فلوس" - وهذا هو السبب فى ايداعها سويسرا ومنشئة البكرى.. هذا هو تفسير ما تراه فى شوارعنا من فوضى وهمجية . تعلم الإنسان المصرى أن هذه ليست بلده : "أنت تأخذ كذا جنيه آخر الشهر تأكل عيالك بيهم، المسكن بتاعك، وببلاش، أنت وأحفادك وأحفاد أحفادك ، المدرسة ببلاش، عايز أية تانى ؟ سيبنا إحنا بقى نساعد حركات التحرر". والنهب والتهريب الجمركى شغال. والحروب تقوم دون أن يدرى بها المواطن إلا عندما يفقد ابناً فيها أو تنهال عليه قنابلها.

من أجل من هذا ؟ ومن أجل ماذا ؟

حقوق شعب فلسطين ؟ حقاً ! كما يقول نزار قباني : "لو أنهم قد حرروا زيتونة أو أرجعوا ليمونة .."

العدالة الاجتماعية ؟ لعنة الله عليها إن كانت هكذا ! وكل صباح، يمسك المصرى بالجريدة أو يسمع الإذاعة ليقال له أن اليهود يدمرون منازل الفلسطينيين، ويرتكبون المذابح والمجازر، إلى أن وصل الحد إلى حلق الناس، وتأتى ساعة الانتقام، فإذا بنا نهلك فى رمال الصحراء ونعود بأقدام حافية ممزقة، إذا لم نحترق

بالنابالم، ومرة بعد مرة، نعم، هذه هي الحقيقة المرة، بعض الحكام لا يحسون بالاطمئنان إلا إذا أفقدوا شعوبهم أدميتها، وقد روى عن الزعيم الخالد أنه شرح نظريته في الحكم لمعاونه : "جوهم يمشوا وراك زى الكلاب". كنت أشاهد حواراً في محطة الـ "بى.بى.سى"، المذيع يحدث رئيسة جمهورية لاتفيا، وهى واحدة من دويلات البلطيق الثلاث التى اكتسحها الألمان فى الحرب الثانية، ثم جاء الروس بعدهم وجعلوا منها جمهوريات سوفيتية، ثم بعد انهيار هذه الإمبراطورية البشعة، استردت شعوبها حريتها. سألتها المذيع : هل يحس شعبكم بالمرارة من جراء ما جرى له ؟ أجابت : المرارة يا سيدى، ترف لا نقدر عليه .

إلا أننا لكثرة ما قتل أبناؤنا بأيدي الإسرائيليين، لن نستطيع أبداً أن نتحمل الحرمان من ترف المرارة، من لذة البغضاء التى ننام عليها ونصحو عليها .

لا بأس بهذا إذا جاء مقروناً بالقدرة على شفاء الغليل وعلى محاسبة من يتسببون فى إصابة شعوبهم بتعاسة لا يقارن بها ما يقترفه أعداؤها فى حقها . ألا يدرك هؤلاء أن الكرامة والعزة .. إلخ، لن تكون متاحة لشعب يقهره حكامه ؟ ولن تكون أبداً من نصيب شعوب خاوية البطون ممزقة الأسماك تقترش الأرض وتلتحف الغبار، لا مدارس ولا مستشفيات ولا رعاية ولا ثقافة ؟ قوة الإنسان لا تتأتى إلا بهذا، بـ "المفهومية"، وليس بالأسلحة، سواء كانت حجارة نلتقطها من الطريق أو قاذفات مقاتلة ثمن الواحدة منها مائتا مليون دولار، نفقد منها خمسمائة فى عدة ساعات ومعها من تكاليف التدريب والصيانة والحظائر ما يعادل هذا الرقم، ثم نتغنى بعد ذلك بأمجاد الثورة، كمجانية التعليم . إن الذى دفعناه ثمناً للطائرات فقط كان يكفى لأن نكون شعباً من خريجي هارفارد .

فقط، إذا كان التقدم العلمى والتكنولوجى يستعاض عنه بالتقدم

التقدمي، فما أسهل أن تتحل مشكلاتنا جميعاً .

منذ بضع سنوات كتب أستاذ في الطب النفسي مقالاً في جريدة كبرى، قال فيه إن ثلاثة أرباع المصريين مرضى بداء يسمى "مانيك دبريسيف"، وهو ظاهرة معروفة في زماننا، تجعل الإنسان عصبياً بشكل دائم ولكنه فجأة تتبسط أساريره وينفجر ضاحكاً .

أظن كلنا نرى هذا بل ونجربه عندما تنشب المشاجرات بيننا ونحن في الطريق ، وهو قدرنا المحتوم، فقد وصلت بنا الفوضى والزحام إلى حد أن مجرد أن تأخذ نفساً عميقاً سيجعلك تصدم شخصاً آخر .

لم يقل لنا الدكتور شيئاً عن الربع الباقي من أهاليينا، هل هؤلاء هم الأصحاء أم أنهم مرضى بأصناف أخرى من الخلل ؟

أنا شخصياً جربت هذا . من الآخرين ومن نفسي . كنت أقود سيارتي ودب شجار بيني وبين سائق آخر، صدمني من الخلف وكسر الفانوس ، قلت لنفسي : نحن أناس طبيون ، لماذا — وأنا محبذ للسلام — لماذا لا أراضيه ؟ قلت له مبتسماً : ولا يهملك ، نهارك سعيد ، وإذا به ينزل من سيارته ويصافحني ويجذب رأسي من خلال نافذة سيارتي وينهال على بوساً (كلمة عربية صحيحة) — بشكل جعلني — ولو للحظة — أندم على المسالمة وأرى فوائد الصراع المستمر .

وكنت أيضاً أشاهد الـ "بي.بي.سي" وكان كلينتون هو الضيف هذه المرة ، في اجتماع في أيرلندا ، بعد إنتهاء رئاسته، وسألوه عن موقف محرج يكون قد جربه ، فقال إن هذا حدث يوم استضاف اسحق رابين وياسر عرفات في البيت الأبيض ، وأنه انفرد بعرفات وحادثه بشأن المسدس الذي يتدلى من مؤخرته ، فقال له: "أنا لا أذهب إلى أي مكان بدوني" ، وأضاف كلينتون ضاحكاً : "لعله يحل محل تشارلتون هستون" ، مشيراً إلى هذا الممثل الشهير الذي يرأس الجمعية القومية للسلاح عندهم ويتعرض للنقد كداعية إلى العنف ، ثم انتقل كلينتون إلى رابين ،

وكانت المحادثة بشأن المجاملات أثناء حفل توقيع الاتفاق ، وروى أن راينين أبدى أنه لا مانع لديه من المصافحة ، "فقط ، أرجوك ، بدون قبلات !".

وقد رأيت الزعيم الفلسطيني في مواقف كثيرة جداً وقد بدا عليه أنه يؤمن بأن حقوق شعبه يمكن أن تتحقق بالبوس (مرة أخرى، باس ييوس، كلمة عربية صحيحة، وهي أوضح وأقل احتمالاً للخطأ في النطق من قبل يقبل) في أيام ريجان، أسقطت المقاومة اللبنانية طائرة أمريكية هبط قائدتها داخل حدود سوريا بالمظلة وقبض عليه السوريون، وكان أمريكياً أسود. أوفد ريجان الزعيم الأمريكي الأسود جيسى جاكسون ليتفاوض بشأن إطلاق سراحه على أساس أن السوريين سيكونون أكثر استعداداً لمحادثة مندوب من أصل شرقي، وتم هذا فعلاً. لم تكن أمريكا إذ ذاك قد وصلت إلى إدراك أن هناك شعباً اسمه الشعب الفلسطيني، طبعاً في وجود رئيس نازي النزعة كهذا، ولكن السيد عرفات أمكنه أن يقابل جاكسون (وهو أصلاً قسيس وكان زميل كفاح للزعيم الأمريكي الأسود مارتين لوثر كنج وأصبح قطباً من أقطاب الحزب الديموقراطي ورشح نفسه مرة للرئاسة ثم انسحب) ورأيت له صورة وقد أطبق على الرجل بفكيه المفترسين والآخر يحاول أن يتملص. على الزعماء أن يدركوا أن صورتهم أمام العالم تؤثر على إحساس العالم نحو شعوبهم. في هذا الموقف بالذات كان مجرد لقاء هذا السياسي الأمريكي بعرفات يعد مخاطرة من جانبه، وقد سبق أن فصل زعيم أمريكي أسود آخر هو أندرو يونج، من منصبه كسفير أمريكا في الأمم المتحدة لأنه اجتمع بشخصيات فلسطينية.

للدكتور محمد كامل حسين مقالة عن اليهود يأتي فيها بتفسيره لما في شخصياتهم من تناقض حاد ، فهم أحياناً يبدون مشاعر إنسانية راقية وملتزمة بالتعاطف، وأحياناً يظهرن كما لو كانوا

شياطين مجردة من الشعور الأدمى . وهو يعلل هذا بتجربة الخروج من مصر ، وقد أوشكوا على الهلاك ثم انشق البحر ونجوا بمعجزة إلهية . وهو يرى أن الاقتراب من الموت إلى حد أن يوقن البشر أنهم قد هلكوا لا محالة ، ثم النجاة بشكل غير متوقع ، مثل هذه التجربة خليقة بتشويه شخصية الفرد الإنساني ، فإذا كانت جماعية فهي أيضاً تشكل شعباً بأكمله هكذا.

الشعب المصرى أيضاً مر بتجربة شنعاء. النقمة التي تنتامى كل يوم، ثم الاحتكام للقوة والإحساس بقرب الوصول إلى الإنصاف، ولكن الذي يحدث هو مرارة تفوق كل مرارة وخيبة أمل لا مثيل لها، وبدلاً من محاسبة المسؤول نجد المسؤول يعاقب ضحاياه إلى حد أن الواحد منهم لا يجروء على أن يلفظ بكلمة ينفس بها عن وجدانه المكبوت، هذا أيضاً خليق بأن يسبب التواء الشخصية، ثم فقدان الشعور بالانتماء لبلد لا يملك الفرد حتى أن يتألم لمصيره بينه وبين نفسه، النتيجة هي أن يدفن الإنسان أفكاره وأحاسيسه في أمعائه .

مما يدل على طبيعة ذلك العصر، والذي جعلنى أشارك الكاتب الوجدى الراحل مصطفى شردى فى الحكم عليه بأنه بكل تأكيد أسوأ حقبة عاشتها مصر فى تاريخها الطويل، هذه الطوائف التي سأحكيها .

حسناً، أصابتنا هزيمة نكراء سنة ١٩٦٧، وعاد عبد الناصر نفسه يعترف بها قائلاً فى خطبة عصماء، "أيوة هزيمة، ما با قولش نكسة ولا حاجة"، كل شعوب الدنيا جربت النصر والهزيمة. والهزيمة ليست عيباً طالما أن المنهزم — والقائمة تضم فرنسا وألمانيا واليابان وكل الناس بدون استثناء — بذل شجاعة معقولة، وأنا أعرف بالاسم طيارين أقلعوا من مطارات كانوا يعرفون أنهم لن يعودوا إليها ، ولا إلى غيرها. ولكن القيادة القديمة كانت ما تزال تمارس الفكر الحشاش. صدرت أوامر بأن يسمع كل ضابط

فى الجىش ما ىلى بالحرف الواحد : "اىه ىعنى سىنا ، شوىة رمل ؟ واىه ىعنى قنائة السوىس ، ما احنا طول عمرنا فلاحىن" - أنا سمعته كما سمعه غىرى . طب اسكت أحسن ! ثم بعد فترة ، قام بعض طلاب الجامعة بمظاهرات احتجاج ، شباب غاضب لضىاع كىانه وحاضره ومستقبله ، كان الحدىث الموجه للجمىع مرة أخرى: "تلاحظون أن المظاهرات خرجت من كلىتى الطب والهندسة . لماذا ؟ لأن هذه هى الكلىات التى ىدخلها من تلقوا الدروس الخصوصية وإلا لما حصلوا على المجمع . ىعنى دول أولاد الأغنىاء ، الساخطين على الاشتراكية" تصور إلى أى حد تصل الخسة والسفاهة والطفولة، "للاحتجاج على أحكام الطىران" ، البىان الرسمى أورد هذا على أنه السبب فى المظاهرات ، كان لا ىد من إعدام من صدرت ضدهم "أحكام الطىران" - تأمل الركاكة أىضاً ، أى طىران ؟ إنه لم ىعد حتى ىسمى الطىران ؟!

وإن كان لزاماً على ألا أختم هذا الفصل دون أن أذكر بىاناً صدر بعد ذلك من الفرىق أول محمد فوزى ، كان جاداً وصارماً ، ورد فىه : "لىكن فى علم الجمىع أن القوات المسلحة سوف تقاىل حتى تنتصر أو تقنى ، ولا ىتحدث عن الحل السلمى إلا كل عاجز أو جبان" - رائع ، هذا مع تحفظاتى بشأن طبیعة الحرب الحدىثة، والسى لا تصلح فىها الشجاعة وحدها . لا أظن شعباً فى التارىخ حارب بإصرار الشعب اليابانى واستماتته واستهانته بالحىاة وإقباله على الموت .

"طول عمرنا فلاحىن" - صح !

هل مازلنا فلاحىن ؟ هل سنظل فلاحىن ؟ أتمنى ذلك !

إلا أنها مسألة .. فىها نظر .

السد العالى

باقى من الزمن خمسمائة سنة :

أستحلف القارئ أن يصدقنى فى أن ما سأتى به هنا بشأن مشروع السد العالى لا علاقة له بموقفى من الحركة المباركة (أو الثورة إذا كان يصر على هذه التسمية ، وقد تغير مضمون هذه الكلمة لكثرة ما حدث من ثورات وكثرة الشعوب التى قامت بها) — أو برأىي فى عبد الناصر كحاكم (وهو يتلخص فى أنه لا يصلح بأى درجة لمثل هذا العمل) ، الواقع أننى أظن أن السد العالى هو الشئ الوحيد الذى أقدم عليه بشئ من حسن النية ، بمعنى أنه قيل له أن هذا المشروع مفيد لمصر وصدق ما قيل له ، تماماً كما صدق خرافة القومية العربية وإمكان الاستناد إلى الاتحاد السوفيتى لقهر أمريكا والغرب .. إلخ . وقد يكون مناسباً هنا أن أذكر أننى كنت مديراً للتدريب المهنى بهيئة السد العالى سنوات ١٩٦٢ - ١٩٦٤ ، وهذا لا يجعلنى أتحمل جانباً من المسؤولية فقد كان عملى هو بناء القوة العاملة فقط وأظننى حققت نجاحاً فى هذا ، أتعرف من الذى شهد لى بذلك ؟ الزعيم الخالد ، أعطانى وسام الجمهورية من الطبقة الثانية . وطبعاً حضرت الاحتفال بتمام المرحلة الأولى ، الذى حضره نيكيتا خروشوف .. وألقى خطاباً حماسياً ، ثم أهدى كلاً من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر أرفع وسام عسكري سوفيتى ويسمى "بطل الاتحاد السوفيتى" (جيرو — يعنى بطل ، وهى نفسها هيرو الإنجليزية ، فقط ليس لديهم حرف الهاء ، ويقولون جوسبيتال ، يعنى مستشفى ، الوسام

اسمه إنن: جيرو - سوفيتسكى سايوز) ، فى اليوم التالى وأنا فى مكتبى جاعنى كبير الخبراء السوفيت العاملين معى ، (وهذه كانت فرقة من حوالى عشرة خبراء وأربعة من المترجمين والمترجمات) للتعليق على ما جرى .

وأنتهز هذه الفرصة لأعبر عن إعجابى بهؤلاء الناس كفنيين مهرة وأيضاً كإشتر ، وهم فى غاية الرقة والتواضع ، ولديهم جلد عظيم على العمل وإحساس بالغ بالمسؤولية ، وقد عملت مع الروس أكثر من خمس عشرة سنة وتعلمت الروسية منهم وعندما سافرت إلى موسكو للتعاقد على المعدات والخبراء لما كان إذ ذاك أكبر معهد للتدريب المهنى فى الشرق ، (هكذا وصفه صدقى سليمان فى حديث معى) ، كنت أتكلمها بما يكفى احتياجاتى . وعبر لى كبير الخبراء عما يحس به الروس فى المنطقة (وكان يوجد منهم بضعة آلاف ، مع أسرهم ، ولديهم تعليمات بأن تتجنب زوجاتهم الحمل وإلا رحلوا فوراً ، وحدث هذا لمتريجة بالغة الجمال كان اسمها ناتاشا ، كانت تعمل معى، تزوجت ورحلوا مع زوجها لهذا السبب ، أذكر هذا لمجرد تبيان مدى التدخل فى الأمور الشخصية) - قال إنهم أحسوا جميعاً بالدهشة لموضوع الوسام هذا ، فهو لا يمنح إلا للعسكريين ، ولا بد أن يكون ذلك مكافأة على البطولة فى الحرب. وقد روى هيكى بعد أن رحل عبد الناصر عن دنيانا" فى واحدة من مقالاته الـ .. ، ما علينا ، روى أن عبد الناصر عندما زار موسكو فى عصر بريجنيف ، سأله هذا الأخير عن السبب فى أنه لا يمتشق الوسام ، وهم يعتادون هذا ، يعلقون الأوسمة على الملابس المدنية . وقد قيل أن هذه الغلطة ذكرت من بين أسباب إسقاط خروشوف ، واعتبرت استهانة بقيم الأمة السوفيتية .

كل حاكم من هذا النوع يلجأ إلى إقامة مشروع هائل ليكون علامة على "ألوهيته" ، كما شيد رمسيس الثانى معبد "أبو سمبل" ،

وكما أمر ستالين بحفر قناة للرى اسماها باسمه ، يقال أنه هلك فيها ملايين من أبناء الشعب الروسى لمجرد إبعادهم لأسباب أمنية، وأيضاً كما فى القصة الشهيرة "مزرعة الحيوانات" للكاتب الإنجليزى جورج أورويل . صحيح هذا ، ولكن الحقيقة تبقى وهى أنه ظل يعتقد أنه يقوم بعمل مفيد لمصر، يختلف عن مصادرتة لثروات البلد وأبنائها ليوزعها على الصحف فى الدول العربية مثلاً لكى تؤيد زعامته - بنتيجة عكسية طبعاً ، كما هو دائماً - وليس كما أمر بإرجاع الفرقة المدرعة إلى سيناء سنة ١٩٦٧ بعد أن أتمت انسحابها ، لما قيل له أنه قد يحدث انقلاب ضده . وهذا واحد من أسباب إهمال كل هذه المئات من الألوف من الجنود وتركهم يهلكون عطشاً وجوعاً ، من أجل حماية النظام والاحتفاظ بالرواتب ، بالقصاقيص الشهرية ، وليس كما أمر بضرب بورسعيد بالمدفعية لكى يشتت أهلها لما أظهوره من سخط لقطع أرزاقهم بسد القناة ، فيما يحكى .

ولا شك أن الدفاع عن السد العالى ممكن ، انظر :

- مصر طبعاً تعتمد على ما يأتيها سنوياً من مياه الفيضان، والفيضان تستراوح كميته من سنة لأخرى إلى حد أنه فى بعض السنوات تصل كميته إلى ثلاثة أمثال سنوات أخرى، وبالتالي فإن الزراعة لا يمكن أن تثبت على حال فى وجه هذا التفاوت الذى أدى إلى فيضانات خطيرة سنة ١٩٦٤، ١٩٧٣ وإلى قحط وجفاف سنوات ١٩٧٢ / ١٩٧٣ ثم ١٩٨٣ / ١٩٨٤، هذا الجفاف طبعاً كان كارثة لدول النيل الأخرى ولكن مصر استمدت حاجتها من بحيرة ناصر .

- مثل كل السدود، يعطى السد العالى طاقة كهربائية بدون الحاجة إلى حرق الوقود الذى يتسبب فى تلوث الهواء وسخونة الكوكب .

- يمكن السد العالى من المحافظة على منسوب ثابت نوعاً

لمياه النهر من أسوان إلى سواحل البحر الأبيض مما يمكن أيضاً من تحسين الملاحة لأغراض النقل والسياحة .

— يضاف إلى ذلك توفير قدر هائل من مياه النيل كان يذهب إلى البحر كل سنة.

فى مقابل ذلك كان النقد الموجه إلى المشروع من قبل بدايته والذي استمر حتى اليوم يتضمن :

— احتجاز المياه أمام جسم السد يؤدي إلى ترسب الطمي الذي يأتى إلى مصر كل سنة منذ آلاف السنين وهو الذي تكون منه وادى النيل ثم الدلتا ، الواقع أنه هو المادة التي تكونت منها مصر كما قال هيرودوت منذ ألف وأربعمائة سنة ، وبدونه : لا مصر .

— انقطاع الطمي أدى إلى تآكل سواحل مصر بين فرعى الدلتا ثم شرقاً وغرباً .

— من النتائج أيضاً ، تملح الأرض الزراعية والذي وصل حتى الآن إلى عمق لا يقل عن عشرة كيلو مترات من ساحل البحر .

— اختفاء الطمي يؤدي إلى الاسراف فى الاستعاضة عنه بالأسمدة الكيماوية ، مما يؤدي إلى تلوث البيئة .

— انقطاع المياه الغنية بالطمي أيضاً أدى إلى اختفاء ثروة هائلة من أسماك السردين والجمبرى .

— كما أدى أيضاً إلى تزايد النحر فى المنشآت المقامة على النيل.

من حيث الايجابيات، فإن الذين عاشوا عمراً طويلاً فى بلادنا — متلى — لن يستطيعوا بسهولة أن يستخرجوا من ذاكرتهم

فيضانات مدمرة كالتى تجتاح بلاداً مثل بنجلاديش — بل فرنسا وانجلترا وأمريكا، ولا أيضاً سنوات جفاف أذت المحاصيل بشكل

محسوس، والذين يؤيدون هذا المشروع المأسوى لا يفكرون إلا فى أرقام الأرض المزروعة وكمية الكهرباء الناتجة دون أن يبذلوا

أدنى قدر من التفكير فى الثمن الفادح الفظيع الذى سندفعه — كما دفعنا فى "الوحدة" وفى "القضية" ومناصرة حركات التحرر.. إلخ، ثمن هائل ندفعه لا فى نظير لا شىء، لبيت الأمر كان ثمناً من أجل لا شىء، إنه ثمن فادح والمقابل كوارث ماحقه نشترىها بدمائنا وعرقنا.

وقد بدأت السدود تتعرض للنقد الشديد فى كل أنحاء العالم، حتى مجرد الفكرة، ونحن كان يمكننا أن نحقق هذه الفوائد — زيادة الرقعة الزراعية وتحسين دورة الإنتاج الموسمى — لو أننا فقط لم نستهلك مليون فدان من أخصب الأراضى التى أنعم الله بها على هذا الكوكب، فى بناء المساكن، وإذا أتيج لك أيها القارئ العزيز أن تعود من الخارج فى رحلة تطير بك فوق الدلتا ليلاً لرأيت إلى أى حد هى مدن سكنية أكثر منها أرضاً زراعية. ولو أننا أيضاً تجنبنا أن ننحت الأرض لإنتاج الطوب الأحمر من أجل بناء هذه المساكن لكنا قد حققنا كل ما نعلم به من وراء هذا المشروع الاستعراضى دون أن نضطر لإقامته، وإلى رهن محصول القطن عشرين سنة كاملة للروس، وهم بدورهم راحوا يبيعونه لقاء محصول أناناس أو صفقة أحذية، أو مجرد تراب الفلوس، وهم طبعاً أجهل الناس سواء بالقطن أو بالبيع.

أما الكهرباء فهى اليوم تمثل أقل من عشرين فى المائة من إنتاجنا من الطاقة. إلا أن المصيبة الكبرى لا تتمثل فى هذا. أياه إيجابيات وأياه سلبيات تلك التى نتحدث عنها، وأى منافع وأى أضرار؟ إذا كانت مصر — بسبب البند العالى — سوف تنتقى من الوجود وتختفى من الخريطة بكل إيجابياتها وسلبياتها؟! فدادين أياه وسردين أياه؟! ما فائدة مليونى فدان نضيفها إلى الأرض المزروعة إذا كنا:

أولاً: قد أكلنا مليونين مساويين فى مشروعات الإسكان والتجريف، مناطق الهرم والجيزة والدقى والمهندسين والسواح

وحدائق القبة وحدها ، مئات الألوف من الأقدنة العظيمة الخصوبة لا تحلم بنصفها دول جنوب أوروبا أو شمال إفريقيا . أما التجريف فما تزال تربة مصر حتى الآن تتحول إلى أقبح عمارات وجدت على ظهر الأرض؟! مجرد حوائط حمراء يستتر الناس داخلها .
ثانياً : سوف نحبس المياه بالسد العالي بحيث لا تأتينا منها قطرة، وسوف نحيل الأرض إلى مستنقعات مالحة؟

خلال سنة ١٩٩٩ ، كنت على صلة بإحدى الهيئات الإستشارية، واشتركت فى إلقاء محاضرات فى علوم الإدارة حضرها كبار العاملين بالوزارة ، كان منهم وكلاء أول للوزارة ومفتشون لرى المحافظات، سبعة برامج (سيمنار، كما يسمى) لمدة ثلاثة أيام كل منها . سألت بعضاً من كبارهم على انفراد، عما إذا كان صحيحاً ما يذاع فى أنحاء العالم من أن الطمى سوف يتراكم عند جسم السد وبطول البحيرة حيث يأتى يوم يتعذر فيه سحب المياه منها ؟ وأن هذا سيؤدى إلى تكوين دلتا أخرى جنوب أسوان تماماً كما تكونت الدلتا القديمة التى عشنا على خيرها آلاف السنين .

كان واضحاً أنهم لا يريدون الحديث فى هذا ، وعندما تكلم واحد منهم، وهو شخصية مرموقة ، قال إن هذا سوف يحدث على مدى ألف سنة . والواقع أن الكثيرين من الثقات تنبؤوا بهذا عندما بدأ الحديث عن السد كمشروع ، وكان منهم واحد من الخبراء المصريين العظماء هو المهندس عبد العزيز أحمد، وبين يدي الآن كتاب لابنته الأستاذة الجامعية الدكتورة ليلي أحمد ، المهاجرة إلى أمريكا ، وهو بالإنجليزية وعنوانه A Border Passage تصف فيه الاضطهاد الذى لقيته الأسرة من الزعيم بسبب معارضته ، الرجل طبعاً لا يعرف أسلوباً غير هذا فى مواجهة المنطق ، لا يمكنك أن تلومه، فهذه حدوده، إلا إذا كنت تلوم القرش على أنه اقتضم نراع سباح أو ساقه.

المهندس الكبير الذى قال لى "ألف سنة" ، كان طبعاً لا يريد

ذكر الحقيقة التي تذكرها مصادر الدنيا كلها وهي أنها خمسمائة سنة فقط .

معنى هذا أن نهر النيل من أسوان إلى البرلس سوف يتحول إلى قناة رملية تزحف إليها مياه البحر . معناه أن مصر سوف تتحول إلى دولة صحراوية جافة قاحلة مثل دول الحزام الإفریقی، تزرع السمك بدلاً من القطن . فتحت الإنترنت ، وحصلت على نبوءات متعددة، منها اقتباسات من التوراة، صحيح أنني لا أراها نبوءات تمتد إلى عصرنا هذا، بل إلى وقتها هي، ولكن الحقيقة تبقى وهي أن هناك من هم سعداء بموت مصر، هذه بعض النصوص الواردة :

من سفر حزقيال ٢٩ :

لذلك هكذا قال السيد الرب ، هأنذا أجلب عليك سيفاً وأتأصل منك الإنسان والحيوان ، وتكون أرض مصر مقفرة وخربة ، فيعلمون أني أنا الرب لأنه قال النهر لي وأنا عملته . لذلك هأنذا عليك وعلى أثمارك وأجعل أرض مصر خراباً خربة مقفرة من مجد إلى أسوان إلى تخم كوش ، لا تمر فيها رجل إنسان ولا تمر فيها رجل بهيمة ولا تكن أربعين سنة .

ومن سفر أشعيا ١٩ :

وتشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس .. حسناً ، "أربعين سنة" توحى بأن هذا كان في الزمن الماضي ، عقاباً لفرعون الذي طغى، ويلحق بما في التوراة بشأن الضربات العشر التي أنزلها به الرب، وليست النبوءة خاصة بسنة ٢٥٠٠ أو حتى ٣٠٠٠ ميلادية ؟

خمسمائة سنة هو الرقم الذي يقدره خبراء العالم ، لسنا هنا طبعاً في مجال البحوث الهندسية ، ولكن — بالعقل كده — تبدو فعلاً خمسمائة سنة . ياه ! يا هنا من يعيش ! أو قل : يا هنا من

يموت ! لن نكون نحن أحياء بالطبع عندما يحدث ذلك ، ولكن
الكثيرين منا سوف يشهدون تملح التربة كما شهدوا اختفاء
السردين .

كل هذا من أجل أغنية لعبد الحليم حافظ ؟
الجفاف والفيضان أزمت تحدث في كل الدنيا ، لأن القوى
الكونية لا تخضع لاحتياجات سكان الأرض . فهل من المعقول أن
نتنحر خوفاً من الإصابة بنزلة برد ؟؟

الشقيقة الكبرى :

يقول نجيب محفوظ : إن عبد الناصر عاش منهزماً ومات
منتصراً بعكس السادات ، فقد عاش منتصراً ومات منهزماً . أما
أنيس منصور فيقول : إن المصريين على يدى عبد الناصر قد
اعتادوا الهزيمة والبكاء على ما ضاع ، وتأصل في نفوسهم أن ما
يريدونه مستحيل أصلاً وارتاحوا إلى هذا الاعتقاد واعتادوا ألا
يحاولوا شيئاً أو أن يأملوا فى شيء ، فلما جاء السادات وكسب كل
معركة خاضها وكل مواجهة أقدم عليها ، فإنه عراهم أمام أنفسهم
وأثبت لهم أن الانتصار ممكن وأن تحقيق المنى ليس مستحيلاً ،
وبذلك أقنعهم بأن ما دأبوا عليه من خمول وما اعتادوه من استكانة
هو السبب فيما هم فيه من ضياع ، كما أنه رفع أدوات البطش من
فوق رقابهم فأحسوا بمسؤولية عن أنفسهم كانوا قد اطمأنوا إلى
انعدامها وأخذوا إلى راحة أبدية حرمهم هو منها ، وهذا هو
السبب فى أنهم أحبوا عبد الناصر وكرهوا السادات ، مع أن الأول
أضاع البلد وتسبب فى إفقارها وإذلال شعبها ، وحتى قناة السويس
التي يتفاخر بإعادتها إليهم – ولعل هذه هى المعركة الوحيدة التي
انتصر فيها أول الأمر – حتى قناة السويس مات وهى خرابانة ولو
عاش لظلت كذلك ، على أحسن الفروض ، وبرغم أن السادات

نجح بعد ذلك فى فتح القناة وتعمير المنطقة وإعادة سكانها إلى بيوتهم وإجلاء الإسرائيليين ومحو مستوطناتهم ثم فى إرساء أفكار جديدة للحياة والعمل ، كل هذا لم يشفع له ، بل إنه حتى انسحاب الإسرائيليين من سيناء قال عنه وزير دعاية عبد الناصر (وأنا لا أعده صحفياً ولا أعدها صحافة طالما هى خاضعة للدولة) قال إن انسحاب الإسرائيليين من أرض مصر قد حرّمها من موقعها القيادى فى العالم العربى . لا أظن كل ما فى الدنيا من علامات التعجب يكفى هنا ، ومازلت حتى الآن أبحث عن جزء مما يسمى العالم العربى كان منقاداً لمصر أو لعبد الناصر ؟ الملك سعود أم الملك فيصل ؟ الملك حسين ؟ عبد الكريم قاسم الذى أطلق عليه هذا الاسم المضحك قاسم العراق ؟ أم عارف أم البكر أم صدام ؟ بورقيبة ؟ بومدين ؟ من ؟ السودان الذى كان مسرحاً لمهازل لا أول لها ولا آخر ؟ حتى اليمن .. ؟ والإقليم الشمالى ؟

ثم لماذا ؟ لماذا نريد مركزاً قيادياً ؟ ما الذى نفيده من ذلك ؟ أن نكون الشقيقة الكبرى ؟ ونحن بين الشقيقات ، بلد ممتن ينظر إليه على أنه مستودع البشر الرخيص ؟

حقاً ، كان لنا مركز قيادى عندما كنا البلد الوحيد الذى فيه جامعة ، وجامعة من أرقى جامعات العالم وأرفعها مستوى ، وكان لدينا مدارس تسمى حقاً مدارس ، سواء بمعنى أنها منشآت للتعليم أو أنها مدارس للأجيال وللشعوب ، تحولت هى أيضاً إلى أبواب لإذاعة الشعارات الجوفاء :

كان لنا مركز قيادى عندما كانت العمالة المصرية فى الدول العربية من نوع الدكتور السنهورى ، الذى ذهب إلى العراق ليضع لهم دستوراً . وليس من نوع صبيان دكاكين البقالة فى شارع السعدون ومختلف أنحاء بغداد ، الذين قام سكانها بذبح ما يقدر بأنه بضعة آلاف منهم فى ليلة واحدة ووضعوهم فى صناديق خشبية وشحنوها إلى مصر . كان هذا سنة ١٩٨٨ عندما كنا أعضاء

معهم فيما سمي إذ ذاك مجلس التعاون العربي. لماذا كان هذا المجلس وكيف نشأ؟ كان قد سبقه ما يسمى "مجلس تعاون دول الخليج"، وهو ما يزال قائماً، قد أتيح لي أن أزور جميع دول الخليج (وجميع الدول العربية في الواقع). وطففت أنحاءها بالسيارة في رحلات عمل متعددة، تخرج من أحدها وتدخل الأخرى دون أن تعرف، فهي ذات النمط، نفس المناظر في كل شيء، جميع المدن جديدة، والمال الوفير الذي جاء من النفط يجعلها كلها حديثة، والسيارات كذلك، والملابس وكل شيء. قد يكون لديهم مبرر لتنسيق أمور التبادل التجاري والمالي والمصرفي والعمالي وشؤون العمل والإقامة، إلى جانب ربط شبكات الكهرباء والنقل والطيران.. إلخ، ما أن نشأ هذا المجلس حتى نشأ مجلس تعاون آخر يضم مصر والعراق والأردن واليمن، إلخ، إحنا كمان، ما حدش أحسن من حد، وفي الحال، نشأ أيضاً مجلس التعاون المغاربي، وهكذا. هذه هي السياسة العربية في أروع صورة لها! كم من الملايين يتكلفه هذا وما الذي سيأتي من ورائه؟ إحنا مالنا.. أتعرفون هذه أيضاً؟ قال له: الدنيا حر النهاردة، فصاح به: حر حر إحنا مالنا يا أخى..

من السهل أن نرى شبح الغوريلا وراء هذا، أطماع صدام الذي تحدث عن اقتسام الثروة، وهو يحكم بلداً لديه ثروة من النفط والماء والطاقة البشرية لو أحسن إدارتها لأصبحت العراق أمثلة للعالم. أظن أن الرئيس مبارك كان يحضر هذه الاجتماعات على مضض، أعنتر عن اضطراري للتخمين، إذ ليست هناك معلومات، ولكن الذي نعرفه أنه عندما وقع العدوان البهيمي على الكويت وقف رئيسنا وقفة الحاكم المسؤول، وبقية القصة معروف، وبعدها طبعاً انمحي هذا الشيء..

الذي يعنينا في هذا المقام أن مصر كانت عضواً مع العراق في ذلك المجلس عندما وقعت تلك المذبحة التي راح ضحيتها آلاف

من الشباب المصري ، يقال إنها بدأت بماتش كورة ، ووقع اعتداء على المصريين فقاموا بمظاهرة في شارع بغداد وسرعان ما جاء العراقيون يدوسونهم بسياراتهم ، يقتلونهم لا لشيء إلا لأنهم يمكنهم ذلك. لا شك أننا نقرر الحقيقة عندما نصف الإسرائيليين بالوحشية لأنهم يواجهون بالرصاص شعباً أعزل في فلسطين ، فقط ، بماذا إذن نصف مذبحة بغداد هذه ؟ الأهم من ذلك: كيف ترى نظرة العالم إلينا ونحن نتحدث عن لم الشمل إلى آخره ؟ وعن حقوق العرب وأتناً أمة واحدة ، إلى آخره هذه السفاهات .

ومما هو أكثر طرافة في هذا الموضوع أن الزعيم الأوحى علق عليه بقوله مبتسماً : يظهر أن العراقيين منذ الحرب (يقصد الحرب مع إيران والتي كسبوا بالغازات السامة) أصبحوا يتكلمون بأيديهم بدلاً من ألسنتهم . فرحان حضرته بشجاعة شعبه في دهس الناس بسياراتهم، ترى ما آخر تطورات فيسيولوجيا الأعضاء في العراق هذه الأيام ؟ بماذا يتكلم اشقاؤنا الآن ؟

ليست هذه هي المناسبة الوحيدة. وقع صدام بين الجزائر والمغرب في الستينيات وتدخلت الشقيقة الكبرى، ووقع ضباط مصريون في أسر المغاربة، وأيام الانفصال في سوريا اعتبر الضباط المصريون أسرى عند السوريين ، وعقب الغزو العراقي اضطر المصريون إلى الفرار عن طريق الأردن لأنه لا يوجد طريق آخر، وطبعاً ينتشر المدرسون والأطباء والفنيون المصريون في جميع الدول العربية . في جميع هذه الحالات عومل المصريون - ومازوا يعاملون - على أنهم كائنات دنيا. عبيد المنطقة .. بل إنه معروف عن أحد حكامها أنه لا يتحدث عن المصريين إلا بتعبير معين مهين ، يشير إلى فقرهم وحاجتهم . لن أقول : بسبب القضية ، نحن الذين جئنا بهذا كله لأنفسنا .

الفظائع التي نسمع عنها لن أورد منها شيئاً هنا ، ومنها مثلاً اغتصاب أطفال ، وجلد آبائهم عندما يحتجون ، وضرب المدرسين

بواسطة التلاميذ ، ولم لا ؟ إنه معتاد جداً أن تسمع في مجالسهم :
ولماذا لا نحارب ؟ ماذا لو مات بضعة ملايين من المصريين ؟
الذى يعنينى هنا أكثر من أى شىء آخر هو الجهل الذى ينطوى
عليه هذا الكلام . هل الحرب الحديثة مسألة كم مليوناً يموتون ؟
أتعرف كم إسرائيلياً ماتوا فى حرب ١٩٦٧ ؟ حوالى ستمائة .
ولكن الزعيم الخالد هو الذى سبق إلى هذه الفكرة ، أخذته الجلالة
فى واحدة من خطبه وصاح طالباً التصفيق : نجدد خمسة مليون !
هم ما يقدروش يعملوا دى ! وفى مناسبة أخرى ، بعد الوكسة هذه
المرّة، كان يتحدث عن مقاومة أى غزو يحدث : "أهو بالسكاكين
بالنباييت ، أيه سكاكين يا هذا وأيه نباييت ؟ لم يذكر من أين سنأتى
بخمسة ملايين نبوت ، يمكن من تشيكوسلوفاكيا ، يظهر أن
الرئيس اليمنى يشاركه عقيدته القتالية ! على قدر افتقاره للعلم بكل
شىء فى هذه الدنيا ، كان جهله بالأمر الحربية يفوق نظيره فى
كل ناحية من نواحي الحياة ويدل بوضوح على مدى عجزه عن أن
يتعلم أو يستوعب أى شىء . وأظن أن هذا كان واضحاً تماماً سنة
١٩٦٧ بل إن هذا ليس كل شىء ، فى عقر دارنا تقع حادثة مثل
سميرة مليون . "الثرى العربى" كما أسمته الصحف، هو وأشباهه،
لا يرون فى مصر سوى ملاهى الهرم وملحقاتها من بيوت
الزمالك والعجوزة، وهم فوق القانون ، من الذى يجزؤ على
محاسبتهم . بداية هذا كله كان زوجة الطالب السودانى وزعامة
أمثال صلاح سالم . لعل هذا كان فى ذهن الرئيس مبارك عندما
قال لهم : حانرج تانى نحارب لآخر جندى مصرى ..؟ صدق
والله ، فالمصريون يتندرون بهذا منذ سنوات طويلة .
لماذا ؟ تفسير هذا عند المتنبى ، ولو أنه لم يكن يقصد مصر
هذه المرّة :

من يهنّ يسهل الهوان عليه ما لجرّح بميت إيلام